نحو الاصلاح :

مكانة الفنون الجميلة

ليس الإنسان فى حياته هذه مكونا من لحم ودم فحسب، وإلا لكان حيوانا كسائر الحيوانات ، بل هناك فى المرء ما هو أهم من هيكل العظام وشرايين الدماء . هناك القلب والعقل ، والروح والشعور ، والإحساس والعاطفة ؛ هذه الهبات الربانية الثمينة تحتاج إلى غذاء ودواء غير غذاء القوت ودواء الطعام : ولذلك يحس الإنسان فى كثير من الأحيان بجوع قتال، ليس مصدره خلو المعدة من الطعام، أو حاجة البدن إلى الغذاء ، بل مرجعه إلى جوع فى العاطفة ، ونقص فى اطمئنان القلب واستقامة الشعور ! .

ولذلك هدى الخالق سبحانه بنى البشر إلى الينبوع الغزير الدائم الذى يفيض على القلب بالمسرة ، وعلى الروح بالبهجة ، وعلى العاطفة بالسمو والعلو ، وعلى الشعور بالهدوء والاطمئنان ؛ ذلك الينبوع الساحر الجميل هو الفنون الجميلة النقية التى تتمثل فى الصوت الرائع الجذاب، أو النغمة الحلوة المتسقة ، أو القطعة الأدبية البليغة ، أو اللوحة الفنية المتقنة ، أو المسرحية المحبوكة الموفقة ، أو القصيده الرائعة المؤثرة ؛ وكأنما أراد الرحمن الرحيم، واهب الفضل والعطاء لكل موجود ، أن يعين الإنسان على صخب الحياة ومتاعب العيش ومضايقات الدنيا ، فأرشده إلى هذه الفنون الجميلة ، لتكون سلوته فى همه ، وأنيسه فى وحدته ، وسميره فى وحشته ، وسبب سعادته وهنائه عند ضيقه وشقائه .

وقد كان من الواجب على الإنسان فى مختلف الأماكن من المعمورة ، ومنذ الأزل القديم، إلى آخر الزمن الطويل أن يرحب كل الترحيب بهذه الفنون الجميلة ، وأن يرعاها حق رعايتها : ويرفع من قدرها ومنزلتها ، لما لها من عظيم الفوائد وجليل المنافع ، ولا شك أنه قد كان بين الناس كثيرون جاهدوا من أجلها أفضل الجهاد ، ودافعوا عنها أحسن الدفاع ، وهؤلاء هم الجنود المجهولون والفنانون العظماء الذين يعرف لهم التاريخ نضالهم من أجل العقيدة والخلق والسلوك القويم فيحفظهم فى سجل الخلود .

ولكن الناس فى عصور الظلمات وفترات التحريف الدينى، وسيطرة الجامدين على شئون الحياة قد شوهوا جمال هذه الفنون ، وطعنوا فيها ، وحملوا عليها كلها حملة شعواء، بحجة أن الأديان لا ترضى عن هذه الفنون ، مع أن الحق ينادى بأن الله أباح لعباده الطيبات، وأجاز لهم أن يمتعوا نفوسهم بكل طيب طاهر من القول والتسلية ، ما دام لا يتعارض مع عقيدة ، ولا يؤدى إلى وثنية أو إشراك ؛ ومن العجيب الذى يجب أن يذكر هنا أن بعض رجال الدين الإسلامى المشهورين بالورع والتقوى كالإمام الغزالى مثلا والإمام الزهرى قد دافعوا عن الغناء والموسيقى دفاعا جيدا، وشرحوا للناس مبلغ تأثيرهما فى تهذيب الأخلاق وإصلاح الطبائع . .

وفى هذه الفترات المظلمة التى تصاب فيها الأمم بالضعف والخور وسوء الفهم اعتقد الناس فى الفنون الجميلة اعتقادا سيئا ، فحاربوها واستخفوا بها وأعرضوا عنها ، كما سخروا من أصحابها . وعدوهم من رعاع الناس وغوغاء المجتمع ، وليس ببعيد عنا ذلك الزمن الذى كان المجتمع يعد فيه الصحفى رجلا حقيرا ، ويعد الأديب رجلا صعلوكا . ويعد الشاعر رجلا شحاذا . حتى سولت لبعض الناس نفوسهم أن يمنعوا زواج بناتهم من أصحاب هذه الحرف مهما كانت منزلتهم ، وقد جر هذا الظن السيء على أصحاب الفنون الجميلة الفقر والنكران ، والجوع والحرمان ، مع عظم رسالتهم فى الحياة إذا استقاموا . .

أما اليوم وقد نهضت الدولة نهضتها ، وأخذت الأمة العظيمة العزيزة طريقها إلى المجد والعظمة، فقد تغير الحال وتبدل الأمر ، وأصبحنا نرى الفنون الجميلة ممثلة فى الشعر والكتابة والصحافة والرسم والتصوير والتمثيل والموسيقى

وغيرها تدر على أصحابها الأموال الكثيرة والأرباح الضخمة والغنائم المغرية ، وأصبحنا نرى هؤلاء الفنانين يحتلون مراكزهم فى الهيئة الاجتماعية ، ويحملون الألقاب الرفيعة من المليك أو الحكومة ، ويشتركون فى أعمال رسمية وشعبية لها مكانتها وخطورتها ، ويتزوجون من أرقى الأسر والعائلات ، ويختلطون بأرفع الطبقات ، ويركبون أفخم السيارات ، ويبنون شاهق العمارات ، ويشرفون على توجيه الإصلاح ، وتظهر صورهم وأخبارهم فى الصحف والمجلات والكتب كأبطال ، وتتحدث عنهم الأندية والمحافل ، حتى صار لهم ثراء عريض ، وجاه واسع ، وشهرة لا تحد .

وحسبنا مثلا أن نذكر فى ميدان الشعر أسماء لامعة لها مكانتها وشهرتها مثل صالح جودت ومحمود إسماعيل وإبراهيم ناجى وخليل شيوب ومحمد الأسمر ، ولا داعى لذكر الراحلين المشهورين الخالدين مثل شوقى وحافظ ومطران والجارم والبارودى . وحسبنا أن نذكر على سبيل المثال أيضا فى باب الصحافة والكتابة أسماء عظيمة مشهورة مثل هيكل والعقاد وتوفيق دياب وطه حسين ومحمود أبو الفتح وكريم ثابت ومحمود تيمور وفؤاد صروف ، وفى باب الغناء والموسيقى أم كلثوم وعبد الوهاب وزكريا أحمد والسنباطى ، وفى التمثيل يوسف وهبى وحسين رياض وحسين شفيق ، وغير هؤلاء كثير مع اختلاف فى المشارب والأهواء .

ولو اردنا الإحصاء أو الاستقصاء لطال المدى وتشعب الحديث ، فحسبنا أن نقول إن الشريط السينمائى مثلا أصبح يربح الآلاف من الجنيهات ، والحفلة الغنائية تأتى بإيراد يبلغ المئات ، والكتاب الواحد يربح مئات الجنيهات ، والمقالة الواحدة قد يكون ثمنها عشرة جنيهات ، وكذلك القصيدة الواحدة ، واللوحة الفنية من رسم الرسام أو تصوير المصور قد تباع بعشرات من الجنيهات . وهكذا نرى أن الفنون الجميلة التى كانت بالأمس مهانة محتقرة قد أصبحت اليوم جليلة الشأن خطيرة المكانة ، تصل صاحبها بأسباب الغنى والمجد ، والجاه والثروة ..

وقد استطاع كثيرون من الكتاب والصحفيين أن يصلوا إلى مناصب الحكم ومقاعد الوزارة وعضوية البرلمان أو تقلدوا الوظائف الكبرى هنا وهناك . مما يدلنا على ما احتلته الفنون الجميلة اليوم من رتبة سامية ودرجة عالية . .

على أنه يجب أن تتذكر على الدوام أن ديننا وعاداتنا وتقاليدنا وقوميتنا توجب علينا أن نتخذ من هذه الفنون وسيلة قويمة مجدية لتربية الذوق السليم ، وإرهاف الحس الكريم ، وتهذيب الخلق القويم ، وأن نتخذ من الأسباب ما يجعلها متفقة مع عقائدنا وأخلاقنا وثقافتنا العربية الشرقية . بدل أن نسرف فى أمر هذه الفنون حتى نتخذها للهو والفجور ، أو اللعب الفاسد أو الترف الزائد أو التضليل الضار ، فيا أهل هذه الفنون الجميلة ، لقد ساق الله إليكم حياة كنتم محرومين منها ، ومجدا كان بعيدا عنكم ، وثراء عريضاً لا يحد ، وأموالا لا تعد ، وشهرة وصيتا ، فاتقوا الله فى أوطانكم ، واتقوا الله فى أبناء الوطن وأخلاقهم ، وابذلوا جهودكم كلها فى النهوض بأخلاقنا وآدابنا ومشاعرنا ، حتى تكون أمتنا خير أمة أخرجت للناس ، والله يهدى العاملين ! .

ومهما يكن من شىء فإننا لا نستطيع أن نكتم أن الدين لا يرضى عن كثير من مظاهر الفنون الجميلة وموضوعاتها بأشكالها الحاضرة ، لما أصابها وأصاب أهلها من تحلل وانحراف ، وليس معنى حديثنا عنها وعنهم أننا نقبلها أو نقبلهم بسيئاتهم ، بل نريد أن ننص على خطر هذه الأشياء فى الحياة أولا ، وأنه من الواجب علينا أن نحكم فيها كلمة الدين وأن نخضعها لخدمة تعاليمه . وذلك ممكن بتصفيتها من كل ما يتعارض فيها مع أصوله ، بعد أن ننظر إليها نظرة المسلم السمح الذى يعرف روح الإسلام . ويومئذ سنستطيع التوفيق بين مطالب الدين ومطالب الدنيا .

وليطمئن المتزمت المتشدد ، فإننا عند إحكام النظر فى تراثنا الإسلامى سنجد فى مجالات التسهيل والترخيص الدينى ما لا يتعارض مع أصول هذه الفنون المستقيمة ، وما نشأ العداء بين الدين والفن السليم القويم إلا عند الجهل بالدين وسوء الاستغلال للفن ، وقد آن الأوان لفهم الدين فهما صحيحا واستخدام الفن لخدمته استخداما كريما .

أحمد الشرباصى
المدرس بمعهد القاهرة الثانوى